• أثر معرفة الحاج لأحكام الحج وآدابه فى سلوكه أثناء الحج وبعده :

إن شرائع الله لعباده لها أهدافها ومقاصدها ، وكل شريعة منها تنطوى على كثير من الأسرار والعبر ، إذا تدبرها المسلم ووقف عند حكمها ، وتجاوز أعمالها الظاهرة القريبة إلى معانيها البعيدة ، ونجد من ذلك فى الحج الأمور الآتية :

١ - الإخلاص لله والتجرد له :

إن الإخلاص هو لب الدين وجوهر العقيدة لتحقيق معنى العبودية لله وحده ، والتجرد من ضروب الشرك ، وسلطان الأهواء والشهوات ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (١) ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (٢) .

---

(١) البينة : ٥ (٢) الكهف : ١١٠

ويتجلى هذا فى الحج بالإحرام للنسك ، الذى يقتضى مع النية الصادقة التجرد من المخيط ، وكأن المحرم بهذا لا يعلن عن تجرده لله بقلبه فحسب ، بل ينخلع كذلك من أمس شىء يحتاج إليه فى حياته ، وهو اللباس ، فيتجرد مما اعتاده منه ، ويستر جسده بإزار ورداء ، وهو بهذا يذكر بداية حياته ساعة ولد ، ونهاية هذه الحياة حين يموت ويلف بمثل هذا .

ويقترن الإحرام بالإهلال بالتوحيد فى التلبية التى تؤكد عباراتها هذا الإخلاص فى جمل متتابعة ، ترد النعم كلها إلى الله ، الذى يستحق وحده الحمد عليها ، فهو مالك كل شىء ، والمتفضل به على عباده ، لا شريك له سبحانه ، ويجاهر المسلم بهذه التلبية من وقت لآخر فى صعوده وهبوطه ، ولقائه لوفود الحجيج ، فتتجاوب الأصداء كلها بهذا ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه على فقه بهذا المعنى ، عندما جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله وقال : « إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » [1] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

والهدى - وهو شعيرة من شعائر الحج - لا يقع موقع القبول من الله إلا بقدر ما يكون فيه لدى المهدى من تقوى وإخلاص : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ (١) .

فعلى المسلم أن يجعل هذا القصد نصب عينيه ، وأن يتبرأ من الأنداد والشركاء ، وأن يظل قلبه موصولاً بطاعة ربه ، مستقيماً على منهاجه .

٢ - أصالة الأمة الإسلامية فى الانتماء إلى إبراهيم عليه السلام وإحياء ملته :

إن شريعة الحج تضرب بجذورها إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، وقد رفعا من شأن أمتنا وشأن رسولها ﷺ ، وهما يرفعان قواعد البيت الحرام ، فكان من دعائهما : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

---

(١) الحج : ٣٧

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) ، فاستجاب الله هذا الدعاء ، وكانت هذه الأمة المسلمة أمتنا ، وكان الرسول الذى بعث فيها محمداً ﷺ ، وهو من نسل إسماعيل عليه السلام .

وجاء فى الآية الأخرى : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ (٢) .

كما بشر برسولنا عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (٣) .

وأخذ الله الميثاق بهذا على النبيين ليأخذوه على أتباعهم إيماناً برسولنا ﷺ ، ونصره له ، وأشهدهم على ذلك ، ووثق شهادتهم بشهادته : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا

---

(١) البقرة : ١٢٨ ، ١٢٩ (٢) الحج : ٧٨

(٣) الصف : ٦

آتَيْتُكُم مِّن كتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

فنحن أمة عريقة لنا مكانتنا فى تاريخ النبوات ، وهى مكانة سامقة لا تعدلها مكانة أمة من الأمم ، والحفاظ على هذه المكانة بالقيام على أمر الإسلام هو مناط عزنا ومجدنا .

٣ - الحذر من الشيطان وغوايته :

تحكى قصة إبليس العداوة بينه وبين الإنسان منذ بداية الحياة البشرية : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢) ، وقد آلى على نفسه أن يغوى الناس أجمعين ، ولكن الله لم يجعل له سلطاناً على عباده الذين خلصت قلوبهم له : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ

---

(١) آل عمران : ٨١ ، ٨٢ (٢) يوسف : ٥

عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ * إنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ (١) .

وأصل مشروعية رمى الجمار فى الحج رمز لهذا ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن النبى ﷺ قال : لما أتى إبراهيم عليه السلام المنسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة ، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة ، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، قال ابن عباس : الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم تتبعون » (٢)

ولأبى حامد الغزالى فى الإحياء كلام نفيس فى هذا ، قال : « وأما رمى الجمار فاقصد به الانقياد للأمر ، إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام ، حيث عرض له إبليس - لعنه الله تعالى - فى ذلك

---

(١) الحجر : ٣٩ - ٤٢

(٢) رواه البيهقى وابن ماجه والحاكم .

الموضع ، ليدخل على حجه شبهة ، أو يفتنه بمعصية ، فأمره الله عَزَّ وجَلَّ أن يرميه بالحجارة طرداً له ، وقطعاً لأمله ، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، وأنه الذى ألقاه فى قلبك ، ليفتر عزمك فى الرمى ، ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه ، وأنه يضاهى اللعب فلم تشتغل به ؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير فى الرمى ، فبه ترغم أنف الشيطان ، واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى إلى العقبة ، وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى ، تعظيماً له بمجرد الأمر ، من غير حظ للنفس والعقل فيه »[1] .

٤ - الأخوة الدينية :

لم يعتبر الإسلام فى بناء أمته وقيام دولته الجنسية

---

(١) إحياء علوم الدين ، وبذيله تخريج أحاديثه للعراقى : ١/ ٢٧٠ ، طبع دار المعرفة ، بيروت .

أو العصبية أو القومية أو اللسان ، أو التواطن فى بلد ، لأنه الدين العالمى للبشرية كلها ، حيث أعلن نبى الإسلام عالمية دعوته بأمر من ربه : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ جَمِيعاً ﴾ (١) ، فكانت الأخوة الدينية هى الرابطة الأم ، والقاعدة التى يرتكز عليها كيان المجتمع المسلم ، ولم يأت الأمر بهذه الأخوة ، إنما جاء الأخبار بها لأنها أمر مسلم به فى طبيعة الدين العالمى ، قال تعالى : ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢) ، وقال ﷺ : « المسلم أخو المسلم » (٣) .

وعليها يقوم الولاء والبراء ، والحب والبغض ، لا على النسب والحسب والقرابة : ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ١٥٨ (٢) الحجرات : ١٠

(٣) رواه البخارى ومسلم . (٤) المجادلة : ٢٢

والإسلام يرد البشرية إلى نشأتها الأولى من أب واحد ، وأم واحدة ، فهذه الفوارق فى الانتماء القبلى أو الوطنى أو اللغوى أو غيرها فوارق عارضة لا تحول دون تعارف الناس ، فضلاً عن الاعتبار العقدى فى الدين الذى يكون به التمايز : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

وعلى الأخوة الدينية أرسى رسول الله ﷺ قاعدة المجتمع المدنى بعد الهجرة ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، وبلغت هذه الأخوة درجة الإيثار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٢) .

والحج معلم وضئ فى هذه الأخوة التى تمثل وحدة الأمة الإسلامية ، إذ يفد إليه المسلمون من مشارق الأرض

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الحشر : ٩

ومغاربها على اختلاف الجنس واللغة واللون والموطن استجابة لنداء الله ، ويلتقون فى المشاعر بقلوبهم المؤمنة ، تجمعهم الأخوة الإيمانية الصادقة ، يطوفون بالبيت الحرام كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ؟ يصفون فى الصلاة حول الكعبة فى دوائر متراصة ، والمصلون فى كل صقع من أصقاع الأرض يتوجهون فى صلاتهم إلى هذه القبلة : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾[1] ، ولو وصلنا صفوفهم لوجدناها دائرة حول المسجد الحرام .

وفى سائر المشاعر يجد الحاج هذه الحقيقة فى السعى بين الصفا والمروة ، وفى الوقوف بعرفة ، وفى رمى الجمار ، وهكذا دواليك .

وإذا اعتبرنا إمرة الحج ، فإن إمام المسلمين هو الذى يقود تلك الجموع الغفيرة التى أتت من كل فج عميق ، ويخطب فيهم فى عرفات ومِنَى ، لتكون الأمة الواحدة التى تجتمع على إمام واحد ، تسمع له وتطيع فى المعروف .

---

(١) البقرة : ١٤٤

وإذا رسخ هذا المعنى عند الحاج فإنه لا يفتأ يعمل على تحقيقه قدر استطاعته ، ليقضى على أسباب الفرقة والحزبية والطائفية ، كى تعود تلك الصورة المشرقة التى كانت لهذه الأمة ، وقد امتد سلطانها فشمل ثلاثة أرباع المعمورة ، فى ظل خلافة راشدة مهتدية وما ذلك على الله بعزيز : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾ (٢) .

٥ - تعظيم حرمات الله :

الحرمات جمع حرمة ، والحرمة ما لا يحل هتكه من أمور الدين ، سواء أكان هذا حقاً لله أم حقاً للأفراد ، فى حرمات المجتمع العامة أو فى حرمة كل فرد فيه : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ (٣) .

وصيانة الحرمات هى التى تحقق الأمان والاستقرار والطمأنينة ، وتنتزع من النفوس بواعث السخيمة والبغضاء

---

(١) الأنعام : ١٥٩ (٢) آل عمران : ١٠٣

(٣) الحج : ٣٠

والشحناء والأثرة وحب الذات . وتعظيم هذه الحرمات يكون بالوقوف عليها ، وامتثال شرع الله فيها ، والقصد لطاعته سبحانه .

ويجتمع فى أشهر الحج حرمتان عظيمتان :

الحرمة الأولى : هى الحرمة الزمانية ، إذ جعل الله السنة اثنى عشر شهراً ، وجعل من هذه الأشهر أربعة حرماً منذ بدء الخليقة ، يحظر فيها التقاتل والتظالم ، ويأمن فيها الناس على دمائهم وأموالهم ، ويغدون ويروحون لمقاصد معيشتهم آمنين لا يخشون عدواناً ، ولا يتوجسون خيفة من أحد ، فيتنسمون فيها عبير الألفة ، ويتذوقون متعة راحة البال ، وطمأنينة النفس ، وسكينة الود ، عسى أن تحملهم هذه الأشهر على التراحم فيما بينهم سائر أشهر عامهم : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٣٦

وهذه الأشهر الحرم هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، تمر الثلاثة المتتابعة فتؤصل فى النفوس الحرمات ، فإذا عادوا إلى ممارسة شؤون الحياة بعدها وضعف تعظيم هذه الحرمات ، جاء شهر رجب تذكرة لهم بأمرها .

وأعمال الحج جاءت موقوتة بأشهر معلومة هى : شوَّال وذو القعدة وذو الحجة ، أما شهر شوَّال فليس من الأشهر الحرم ، ولكنه توطئة لها ، وأما ذو القعدة وذو الحجة فهما من الأشهر الحرم ، لتأمين الناس على حرماتهم بعامة ، وتأمين الطريق للحاج بخاصة ، يقول تعالى : ﴿ الحَجُّ أشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِن خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) ، ففى النهى عن الرفث فى الجماع ودواعيه ، وعن الفسوق الذى يشمل الخروج عن أى أمر من أمور الدين ، وعن

---

(١) البقرة : ١٩٧

الجدال بالباطل ، تتخلى النفس عن دواعى الإثم ، ثم يكون التحلى بفعل الخير والتزود بالتقوى ، فتتم التحلية بعد التخلية ، ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلاَ الهَدْىَ وَلاَ القَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ﴾ (١) .

والحرمة الثانية : هى الحرمة المكانية للبيت الحرام وما حوله من الحرم كله ، إذ جعل الله لهذا الحرم حرمته على المحرم والحلال ، وهى حرمة تتجاوز حرمة الإنسان إلى حرمة الحيوان والطير والشجر الذى لا يستنبته الآدميون عادة ، والنبات الرطب واليابس ، حتى الشوك ، لا يقطع ولا يقلع ولا يتلف ، واستثنى من ذلك الإذخر الذى يحتاجون إليه فى الحدادة ، وسقوف البيوت ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يختلى خلاها ، ولا يعضد شوكها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يلتقط لقطتها إلا من

---

(١) المائدة : ٢

عرَّفها » ، فقال العباس رضى الله عنه : إلا الإذخر فهو لقينهم ولبيوتهم ، فقال : « إلا الإذخر » (١) .

وقد أكَّد رسول الله ﷺ تلك الحرمات فى خطبته العظيمة التى خطبها يوم عرفة ، كما جاءت فى حديث جابر رضى الله عنه ، الذى رواه مسلم وغيره ، إذ قال ﷺ : « إن دماءكم وأموالكم - وعند غير مسلم : « وأعراضكم » - حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعاً فى بنى سعد ، فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً

---

(١) متفق عليه ، وقوله : لا يختلى خلاها : أى لا يقطع نباتها الرطب - والقين : الحداد .

غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال : بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس : اللهم أشهد ، اللهم أشد ثلاث مرات » (١) .

إن ما جاء فى هذه الخطبة جدير بأن يكون موضع دراسة واهتمام فى عصرنا الحاضر ، الذى انتهكت فيه حقوق الإنسان ، واستبيحت حرماته ، وأهدرت فيه القيم التى يقوم عليها أمر الله .

إن حرمة الدماء والأموال والأعراض هى التى تحفظ للبشرية أمنها وسلامتها ، حتى توجه طاقاتها لعمارة الأرض وتحقيق النماء والازدهار ، ومع ما يزهو به العالم الحديث من تمدن وحضارة ، وما صدر من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، ثم شعار النظام العالمى الجديد ، فإن

---

(١) رواه مسلم وغيره .

هذه الحرمات لا تزال حلماً لم يتحقق ، والواقع الذى يشهده الناس اليوم فى الاستعلاء والسيطرة والبطش ، يرد هذه الشعارات البراقة إلى أصحابها ، ورسولنا محمد ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً يؤكد هذه الحرمات مرة بعد أخرى ، بحرمة اليوم ، فهو يوم عرفة ، وحرمة الشهر ، وهو شهر ذى الحجة من الأشهر الحرم ، وحرمة البلد ، وهى بلد الله الحرام .

ووضع رسول الله ﷺ فى هذه الخطبة أمور الجاهلية وأبطلها ، وبدأ بنفسه وذوى قرباه ، وذلك شأن القيادة الرشيدة المستنيرة بنور الله التى تجعل من نفسها الأسوة الحسنة لغيرها ، حتى تكون موضع تقدير واحترام .

وكان للنساء فى هذه الخطبة حظ وافر ، حيث عظم رسول الله ﷺ حقوقهن ، وبين ما يجب لهن وما يجب عليهن ، حفاظاً على الأسرة فى ترابطها وتماسك بنائها ، وطهارة عرضها .

ثم جاءت الوصية البليغة ، التى يظل بها أهل الإسلام بخير ما أقاموا حياتهم عليها ، وهى الاعتصام بكتاب الله ،

وفى تاريخ الإسلام بعصوره المتعاقبة نجد صدق هذه الحقيقة ، فالخط البيانى فى هذا التاريخ يعلو ويهبط بقدر ما يكون تمسكنا بهذا الكتاب ، فإن أمة يكون هذا الكتاب دستورها لن تضل أبداً .

وكأنه ﷺ كان يستشعر الفراغ من أداء رسالته ، وأنه بهذا سوف يلقى ربه عن قريب ، فكانت خطبته خطبة مودع ، واستشهد الله ثلاث مرات ، وأمر الناس أن يبلغ شاهدُهم غائبَهم .

والمسلمون الذين يفدون إلى بيت الله الحرام ؛ يستحضرون تعظيم حرمات الله فى هذا المستوى الرفيع ، ليقيسوا بها واقعهم ، وليعملوا على أن تكون نبراساً لهم فى حاضرهم ، كما كانت نبراساً لهم فى ماضيهم ، حتى يأخذوا بزمام قيادة البشرية من جديد .

* * *

٦ - الرزق والأمن :

من أجلّ نعم الله على عباده نعمتان : نعمة الرزق ،

ونعمة الأمن . فالرزق هو قوام معيشة الإنسان ، ومهما كانت بلهنية العيش ، وكان رغد الحياة ، فإن الاستمتاع بذلك لا يكون إلا فى ظلال أمن وارف ، يتفيأ الناس فى كنفه ملذات الحياة وطيباتها الحلال ، ويأخذون بأسباب ذلك ما استطاعوا إليه سبيلاً .

وقد ارتبطت هاتان النعمتان بمشروعية الحج ارتباطاً وثيقاً ، فإبراهيم عليه السلام الذى رفع قواعد البيت مع ولده إسماعيل ، جاء قوله تعالى عن دعائه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (١) ، ودعاء الأنبياء مستجاب ، فليس هناك أمن أعظم من الأمن الذى خص الله به مكة على النحو الذى عرفناه فى تعظيم حرمات الله .

ومع أن مكة بلد قفر ، لا تتوفر فيه أسباب الرزق ، فإن أرزاق الأرض تأتى إليها من جميع أقطارها ، فلا تنقطع عنها طوال أيام السنة ، تأتيها ثمار المناطق الحارة ، وثمار المناطق الباردة ، فى فصول العام المختلفة المناخ بالشهور

---

(١) البقرة : ١٢٦

كلها ، وهذا ما يشهده الناس فى واقع حياتهم اليوم ، وهو ما رد الله به مقالة المشركين : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وامتن به على المؤمنين : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

والحفاظ على هاتين النعمتين جاء مقترناً بحقهما ، شكراً لله ، وقياماً على عبادته وحده ، وانقياداً لشرعه ، كما فى سورة قريش عن القرشيين ، وما كان لديهم من رحلتين تجاريتين إلى اليمن شتاءً ، وإلى الشام صيفاً : ﴿ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ ، كما امتن عليهم بالحرم الآمن ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِن حَوْلِهِمْ ﴾ (٣) .

---

(١) القصص : ٥٧ (٢) الأنفال : ٢٦
(٣) العنكبوت : ٦٧

وضرب الله لهذا مثلاً يعتبر به الناس : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

وهذه عبرة يستقيها الناس ويبصرون عمق معناها فى الحج إلى بيت الله الحرام ، حتى يستيقنوا بما فى نعمتى الأمن والرزق من منة الله ، ويستلهموا من ذلك العظة .

* * *

٧ - الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل :

قد يحسب بعض الناس أن التَّدَيُّن يتنافى مع السعى للحياة الدنيا ، واكتساب خيراتها ، والاستمتاع بطيباتها ، لأنه يهدف إلى السعادة فى الدار الآخرة ، وهذا يقتضى الزهد فى الدنيا والانصراف عن مطالبها ، والبعد عن ملذاتها ، والعزوف عن متعها ، وهذا الفهم هو الذى أدى إلى الرهبانية عند النصارى كما حكى القرآن الكريم

---

(١) النحل : ١١٢

عنهم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

والإسلام دين الفطرة الذى يحقق التوازن فى مطالب الحياة كلها ، تصلح به دنيا الناس لصلاح أخراهم ، فهو يوجه أتباعه إلى عمارة الأرض ، باستثمار ما أودعه الله فى كائناته استثماراً نافعاً مفيداً ، يحقق النماء والرخاء والازدهار ، وهذا هو نداء نبى الله صالح عليه السلام الذى وجهه إلى قومه : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِن إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٢) ، أى طلب منكم عمارتها ، فجعلكم عُمَّاراً لها ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ ، وهو ما نجد فى التوجيه الإسلامى بالسعى فى الأرض طلباً للرزق ، لافى وديانها السهلة فحسب ، بل فى منعطفاتها الوعرة : ﴿ فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ (٣) ،

---

(١) الحديد : ٢٧ (٢) هود : ٦١

(٣) الملك : ١٥

ويقرن الله بين الضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله ، والقتال لإعلاء كلمة الله فى أرضه : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ (١) .

وإذا كانت الصلاة من أركان الإسلام التى يخلص فيها القلب لله ، والمسلم يؤم المسجد لأدائها فى اليوم الواحد خمس مرات ، فإنه بعد أدائها والتزود بزادها الروحى يخرج ليعمل فى الأرض ، ويقتات لنفسه ولعياله ، دون أن يغفل عن ذكر الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِى لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ، وكان عراك بن مالك رضى الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إنى قد أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ،

---

(١) المزمل : ٢٠ (٢) الجمعة : ٩ ، ١٠

وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » [1] .

والإسلام إذ يجمع بين الدنيا والآخرة ، يجعل الآخرة هدفاً وغاية دون أن يغفل أمر الدنيا ، وقاعدته فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [2] .

ومشروعية السعى بين الصفا والمروة رمز لذلك المعنى فى الإسلام ، فقد ترك إبراهيم عليه السلام هاجر مع ابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام ، عند مكان بناء البيت امتثالاً لأمر الله ، حيث لا أنيس ولا زاد ، ووضع عندها قليلاً من التمر والماء ، وتركهما على هذه الحال ، فنادته هاجر مراراً بلهفة وتحير ، فلم يلتفت إليها ، ثم قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيعنا ، والشأن فى المرأة أنها قليلة الجهد ، ضعيفة التحمل ، فلما نفد ما لديها ، وأخذ ابنها يتلوى جوعاً ، لم تقعد فى

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

(٢) القصص : ٧٧

مكانها مكتفية بدعاء ربها ، بل أخذت تبحث عن قوت ، وسعت بين الصفا والمروة ، وتنظر يمنة ويسرة علها تجد شيئاً ينقذها مع ولدها من الهلاك ، فلما أشرفت على المروة بعد سبعة أشواط ، سمعت صوتاً كان فيه الغوث من الله بعد عناء طويل ، فكانت زمزم ، ثم نزل بعد ذلك قوم من جرهم آنسوها مع ابنها .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « جاء إبراهيم عليه السلام بهاجر وبابنها إسماعيل عليه السلام ، وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم ، فوضعهما تحتها ، وليس بمكة يومئذ من أحد ، وليس بها ماء ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، فجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذا لا يضيعنا ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، رفع

يديه وقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) وقعدت أم إسماعيل تحت الدوحة ، ووضعت ابنها إلى جنبها ، وعلقت شنها تشرب منه ، وترضع ابنها ، حتى فنى ما فى شنها ، فانقطع درها ، واشتد جوع ابنها ، حتى نظرت إليه يتشحط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فقامت على الصفا - وهو أقرب جبل يليها - ثم استقبلت الوادى تنظر ، هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى إنسان مجهود ، حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ونظرت ، هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فلذلك سعى الناس بينهما » ، ثم إن هاجر لما أشرفت على المروة حين أصابها وولدها

---

(١) إبراهيم : ٣٧

العطش سمعت صوتاً ، فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمَّعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه ، وتقول بيدها هكذا - تغرف من الماء فى سقائها ، وهو يفور بعدما تغرف ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معيناً » ، قال : فشربت ، وأرضعت ولدها ، فقال له الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مثل الرابية ، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله » (١) .

لقد بلغ إيمان هاجر ذروة اليقين بالله ، « قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا » ، ولكنها لم تركن إلى هذا اليقين رافعة أكف الضراعة إلى الله ، وقد علمت أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، بل

---

(١) رواه البخارى .

أخذت تنشر مع هذا اليقين أسباب النجاة لها ولولدها ، حتى جاءها فرج الله ، وهذا الفقه الإيمانى هو حقيقة التوكل على الله ، فى الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على الله : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » (١) ، فالطير لا يرزق فى وكره ، إنما يرزق بغدوه ورواحه ، وهو ما كان من مريم عندما جاءها المخاض إلى جذع النخلة ، وهى فى حاجة ملحة إلى غذاء تطعمه فتطعم ابنها ، وأنَّى لها أن تصعد النخلة لتجنى ثمرها ؟ فكان الهدى الإلهى لها أن تهز النخلة ، وأنى لها كذلك أن تهزها ؟ ولكنها شرعت فى ذلك ، فتساقط الجنى ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا * فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْناً ﴾ (٢) .

* *

٨ - المغفرة والرحمة :

ينشد المؤمنون فى طاعتهم لله وإخلاصهم أن يكونوا

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وأحمد .

(٢) مريم : ٢٥ ، ٢٦

أهلاً لمغفرته ، وأن يحظوا بجنته التى أعدها لعباده المتقين ، لينعموا فيها بالنعيم المقيم .

وقد أودع الله فى الإنسان بواعث الخير ونوازع الشر ابتلاءً ومحنة ، ومهما حرص المسلم على أن ينال هذه الحظوة بالاستقامة على دين الله ، فإنه غير معصوم من الخطأ والوقوع فى الإثم ، ولكن الله فتح أمامه باب التوبة النصوح ، فالتوبة تذهب الحوبة ، وفتح أمامه التزود بالحسنات ، فالحسنات يذهبن السيئات .

وجاءت الأحاديث الكثيرة الدالة على ذلك :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » (١) .

---

(١) رواه مالك ومسلم والترمذى والنسائى .

وعن سهل بن سعد أن النبى ﷺ قال : « إن للجنة باباً يقال له الريان ، يقال يوم القيامة : أين الصائمون ؟ فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب » (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » (٢) .

وللحج النصيب الأوفر فى ذلك ، فإنه يغسل الذنوب ويرد الحاج إلى ولادته ، واستقباله الدنيا استقبالاً طاهراً نقياً نظيفاً ، فيستطيع أن يصون هذا الفضل ، ويحذر الآثام ، ويبدأ حياة جديدة يعمرها بالإيمان والتقوى مهما كبرت سنه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (٣) .

والأمل المنشود للمؤمنين الصادقين فى الجزاء الأخروى ، والنعيم السرمدى ، سبيله الحج المبرور الذى لا تشوبه

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه البخارى ومسلم .

معصية ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » (١) .

* * *

● العوائق التى تحول دون الاستفادة من آثار الحج :

تؤتى العبادات فى الإسلام ثمارها الطيبة ، بحسن القيام عليها ، ومراعاة آدابها ، والاستفادة من آثارها ، وإنما يفتقد المسلمون تلك الثمار ، إذا لم يراعوا ضوابطها ، ولم يحفظوا حقوقها ، ولم يحسنوا أداءها ، فترتد إساءتهم على أنفسهم ، وتضيع جهودهم سدى ، ويبوءون بالعواقب الوخيمة .

وحديثنا عن الحج وآدابه ، وأثره فى سلوك الحاج ، مرهون بالضوابط الآنفة الذكر ، ولكن العوائق الكثيرة فى أخطاء الناس بالحج ، تحجب عنهم ذلك الخير ، وتحول بينهم وبين الاستفادة منه ، ومن هذه العوائق :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .